الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

اصحاب الامتياز

منير البعلبكي ؛ سهيل ادريس ؛ بهيج عثمان

AL-ĀDĀB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban. B.P. 1085

المدير المسؤول : بهيج عثمان

رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

هيئة التحرير

(حسب الاحرف الهجائية)

احمد سليمان الأحمد	قدري حافظ طوقان
علي أدهم	عبد الله عبد الدائم
ذو النون ايوب	مارون عبود
خليل تقي الدين	ابراهيم العريض
جورج حنا	عبدالله العلايلي
شاكر خصباك	توفيق يوسف عواد
رئيف خوري	نبيه امين فارس
عبدالعزيز الدوري	شكري فيصل
قسطنطين زريق	نزار قباني
احمد زكي	صباح محيي الدين
نقولا زيادة	انور المعداوي
وداد سكاكيني	نازك الملائكة
فؤاد الشايب	عبد الحميد يونس

تتشبث أسطورة « العصر الذهبي » بالعقلية العربية بعامة والعقلية المصرية بخاصة ، تشبثاً جعل وحداتها الجماعيه مشدودة الى مؤخرة الموكب الانساني المتقدم ابداً الى الامام ؛ وكأنما كتب على هذه الوحدات ان تنظر دائماً الى ما وراء ؛ واذا نظرت الى ما أمام ، فانما هي النظرة الخاطفة والالتفاتة العجلى تعبر عنها في خفوت لا يكاد يبين . والحياة عندها آخذة في الفساد ؛ والامتداد في الزمان يورث الضعف والهزال ويقرّب من المصير المحتوم . فالحضارات القديمة التي نبتت على شواطىء النيل والفراتين ، اعظم مما جاء بعدها عند قوم ؛ والبداوة وما فطرت عليه من الظعن والاقامة ، أعظم من الاستقرار والتمدن عند قوم آخرين .

وسلطان هذه الاسطورة على الأدب العربي ، إنشاءً وتذوقاً وتأريخاً ، أقوى من سلطانها على اي شيء آخر . وكان من حق نهضتنا القومية ، أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، ان تعتمد على هذه الاسطورة وان تساير منطق كل نهضة في إحياء التراث القديم ، وصلاً للحاضر بالماضي وتدعيماً لمكان الشعب العربي من الحياة ، وإبرازاً لمقومات شخصيته الأصيلة .

نحو أدب ديموقراطي

بقلم الدكتور عبد الحميد يونس

ولكن هذه النهضة ما لبثت ان جعلت هذا الاحياء غاية في ذاته ، فقصرت زادها الوجداني ، او كادت ، عليه ؛ وأخضعت الحياة الحاضرة لمعاييره ، وخالت ان أسسه الفلسفية والنفسية يمكن ان تصلح وحدها أساساً لوجودها ولم تكتف بذلك ، ولكنها انتخبت جانباً واحداً بذاته من جوانب التراث الأدبي ، هو مأثور الأدب الرسمي .

ولا تظنن انني أبالغ في نعته بالأدب الرسمي ، فالواقع ان هذا الأدب ، بدوياً كان او حضرياً ، شآمياً كان او عراقياً ، إنما هو أدب الطبقة الحاكمة يمكّن لسلطانها المعتمد على العصبية او القائم على الغلب ، ويرفه عن الحكام وأقيالهم ويتحدث عنهم ولا يكاد يتحدث عن أصحابه الذين انشأوه . ولو ان أحداً من الدارسين تصدى للتفسير الاجتماعي لهذا الأدب ، لوجد ان القرائن على ما نقول أكثر من ان يحصيها العد أو تنفع فيها الاشارة ، على الرغم من القطيعة الكبرى بينه وبين قائليه في الغالب الأعم . وتاريخه يساير تطور الحكم فحسب من مشيخة القبيلة الى الملك ، وكلاهما يعتمد على الوراثة التي تتسم بتعظيم الاصل القديم

والمحافظة عليه . وانت تجد هذا التعظيم للأصل وتلك المحافظة عليه طابع الأدب الرسمي كله تقريباً .

ولست أريد ان أزج بك في تعويصات الدراسات النفسية لأبين لك خطر الاكتفاء بهـذا التراث الرسمي في حياتنا ، وحسبك ان تعلم انه يجعل التفنن وقفاً على المتعلمين ويجعـل مقياس الاجادة فيه، استدعاء الصور القديمة والتجاريب الماضية. ولم لا ؟ .. أليس الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف ؟ . . ألا يتعلم الناس في مدارسنا ان الأدب لا موضوع له ، وانه حرفة قد تكون شؤماً على صاحبها ؟.. وان التأهل له إنما يقوم بكثرة الحفظ لآثار بأعيانها ، والتدرب المستمر على محاكاتها !. والطالب الذي يدخـل المدرسة عندنا تنعكس في نفسه صور ذلك التراث الرسمي وتلون مثله في الحياة وتكاد ترسم له معالم السلوك . وإن كنت في ريب مما أقول ، فاقرأ يا اخي ما وجه في الامتحان العام منذ أيام قلائل الى طلاب التوجيهية ، اي طلاب الصف المجهزين لدخول الجامعة ؛ إنهم لا يزالون يُسألون عن المدح في الشعر وتأثيره في خُلق الأمة . أليس المدح في جملته وتفصيله صدى للنفاق الصارخ في مجتمع يستبد به حاكم مطلق يقسّم الارزاق على الناس حسب مشيئته ورضاه ؟ . . وما علاقة ذلك المدح المأثور في الأدب الرسمي ، وأعظم صوره المتنبي ، في مجتمعاتنا الديموقراطية او النزاعة الى الديموقراطية ؟

وعنـدما أرادت نهضتنا الأخـيرة ان تستحدث في الأدب تجديداً أو ما يشبه التجديد ، أنشأت آثاراً نستطيع ان نصفها بالأدب الكلاسي الجديد . وما نحب ان نميل مع هؤلاء الذين يريدون ان يجعلوا الأدب العربي مخالفاً في التطور والصـورة لغيره من آداب الامم والشعوب ، فان مثل هذا المنهج يفر من مواجهة المشكلة ولا يحلها ، ذلك لان اصحابه يحكمون على الأمة العربية بأنها نسيج وحدها في الوجود والامتداد وان النواميس التي تخضع لها مغايرة للنواميس التي تخضع لها سـائر الاقوام . فأنت ترى ان العقل اساس هـذا الأدب وضابطه . وهذا شاعر النهضة الأول « شوقي » يتكىء على العقل في انشائه حتى لتبدو قصائده أقرب الاشياء الى الاشكال الهندسيـة المنتظمة ، ركبت بحساب دقيق ومنطق مضبوط . وحدثت المزاوجة الطبيعيـة التي لم يكن منها مفر بين الاحتكام الى العقل واحتذاء القدماء . فان اسطورة العصر الذهبي وسوست الى العقول بان القدماء هم وحـدهم الذين استطاعوا الاصابة في الانشاء والتفنن . وهذا اعتراف آخر بان منهج الفن كمنهـج الرياضيات ، يخضع للخطأ والصواب . وطريقـه السوي واحـد لا ينحرف أو يحيد ، وهو الطريق الذي سلكه القدمـاء . والتفسير الاجتماعي لهذه الكلاسية الجديدة في الأدب العربي ، إنما هو النزوع القومي المتكتل حول نواة الحاكم . وقد كان المجتمع العربي يشبه في ذلك القوميات الاوربيـة عنـد اول ظهورها في التاريخ الحديث . فان هـذه القوميات نهضت بالسلطان المطلق لفرد يعتمد في وجوده وحكمه وخضوع الناس له على تفويض إلهي أو ارومة غـازية . وما يتسم به الأدب الكلاسي في جميع عهوده من المناسبة بين الاجزاء والاشكال، صدى طبيعي لما تتطلبه الحكومة المطلقة في المجتمع من إيثار التوازن والاعتدال ، كما ان غلبة القواعد الحرفية على الأدب وقيامها منه مقام العرف المرعي في الاخلاق . تدل على إيثار الواجب والتسليم بالتقاليد والخضوع لأحكام السلطان المستند الى حق غيبي أو تاريخي .

ولم يغير الاستعمار الاوربي للعالم العربي من هـذه الصورة العامة ولكنه أعان عليها وتوسع فيها ، وأغلب الظن انه أدرك بفلسفته المكيافيلية ، ان يعوق التطور ما استطاع ، فتوسل الى حكم الشعب بحكم ملوكه وامرائه ، وشجع الأدب الذي يعين على بقاء هذا النظام وثباته ، ثم خلق الطبقة الادارية المنسلخة عن بيئتها الانسلاخ كله ، لترتكز عليها قمـة الهرم التي اقامها وسندها . وتم للمستعمرين بذلك ، الطمأنينـة الى استغراق الشعب العربي في أحلام الماضي واجـتراره لأسطورة العصر الذهبي وتجنيد الملكات للحاكم وأعوانه ، والاحتفال بالعقـل على حساب الوجدان ، والاهتمام بالشكل والتناسب ، وما الى ذلك من تتبع العلاقات بين الجزء والجزء أو الجزء والكل . وإذا صح ذلك على الانشاء الأدبي ،فانه يصح على التذوق والنقد.

بيد ان الحياة مهما عوقت ومهما وضع في طريقها من الحواجز والعراقيل ، فانها لا تجمد ولا تتوقف . ومن هنا نفذت خلال النوافذ المغلقة والأستار المسدولة ومضات من النور الخاطف غير المستقر ، ترهص بالتحول وتتنبأ بالتطور ، فكانت الثـورة الرومانسية التي حاولت ان ترد الأدب الى نفوس اصحابه ومنشئيه ، وان تخلصه من الصناعية الحرفية والاتباعية العقلية . وهكذا بدأت تبرز شخصيـة الأديب . وكان بروزها معلماً واضحاً من معالم التطور . ولكنها كانت شخصية فردية وقفت

عند ذاتها لا تتعداها واعتبرتها بلورة خاصة قائمة برأسها لا علاقة لها بغيرها . وكأنما اصبح كل اديب من هؤلاء الأدباء الرومانسيين يرى نفسه مركز الكون ومعيار الحقيقة ، يكبر من ملاهيه ، ويبدىء ويعيد في تصوير ملذاته ، أو يجتر آلامه وأحزانه ، ويرفع نفسه عن الحياة في برج عاجي أو يعتزل الناس بليل تحت مصباح اخضر . ونحن نعترف بان هذه الرومانسية كانت خطوة جريئة الى الأمام لا تقاس اليها خطوة اخرى ونعترف كذلك بانها كانت تمثل النزوع الى الديموقراطية ، لان الاعتراف بالفرد مناط النظر الديموقراطي . وهو يباين فناءه في غيره أياً كان هذا الفناء . ويجعل منه مثالاً لحكومته او مركزاً لهذه الحكومة ، تنبع منه وتصب فيه . وقصاراها ان تنسق مجالات النشاط لهؤلاء الافراد المتساوين في الحقوق والواجبات .

وعلى الرغم من هذا كله انحصرت الحركة الرومانسية انحصاراً يكاد يجعلها جزيرة محدودة بالكلاسية من جميع جهاتها ، لأن منظماتنا التعليمية لم تبرأ من النظر الكلاسي القائم على اسطورة العصر الذهبي . وبذلك ضعف تأثير الاتجاه الى الابتداع ، وغلب عليه الاتجاه الى الاتباع . وظل الأدب في عرف المعلمين والمتعلمين على السواء ، ادب لغة لا أدب متلاغين . وأضحى القول بتكافؤ الفرصة في التعليم صرخة في واد من ناحية التفنن الادبي ، لأن هذه الفرصة قلما تتاح للتلاميذ والطلاب ، فهم يعكفون اولاً واخيراً على تراث الأدب الرسمي ، يحفظون مختاراته ويتأثرون بشواهده ويتتبعون سير صانعيه ومحترفيه ، ويستخلصون منه احكاماً تقوم كلها على المناسبة والمشاكلة بين الاجزاء ، يقفون عندها لا يستشفون ما وراءها ، وقصاراهم ان يصفوها من الخارج . ولهذا آثاره التي لا تمحى ، على مداركهم وقدراتهم على الابانة ، لأنها تحدد لهم القوالب والصيغ والصور ، كما انها ترسم لهم منهجهم الذي لا منهج لهم سواه في العبارة اللغوية . ولم تقف منظماتنا التعليمية عند هذا الحد في تقييد التفنن وتكبيل القرائح المعبِّرة ، بالقيود . ولكنها آثرت خطة تعسفية لا تقل خطراً عن خطتها في تلقين الادب الرسمي ، متجاهلة ما يعرفه التربويون من ان الاحداث ينزعون نزوعاً طبيعياً فطرياً الى الابداع ، يساعدهم على ذلك انهم لما يقعوا بعد في إسار الشعور والتفكير التقليديين . فأين هذا مما نحن فيه !... ومعلمو اللغة العربية وآدابها هم الذين يتخيرون صور التعبير للأحداث ، ويعينون لهم الموضوع الذي يطرقون ، ولا يفسحون صدورهم لموضوعات اخرى يختارها الناشئون بانفسهم . ثم يتوسعون في خطتهم فيقسمون الموضوع تقسيماً تعسفياً يصدر عن العقل ولا يصدر عن الوجدان ، ويحددون عناصر هذا الموضوع تحديداً آلياً ؛ وإذا تركوا للتلاميذ شيئاً ، فهم إنما يتركون لهم استحداث الروابط بين هذه العناصر ... وناهيك بما يبدو من إعجابهم بشواهد الادب الرسمي .

وأثرت هذه الكلاسية الجديدة ، في الانشاء والتعليم ، على صميم الحركة الرومانسية نفسها ، فان الادباء الرومانسيين ، بعد ان اتصلوا بالآداب الاوربية وما تنطوي عليه من قيم ، وبعد ان افادوا من الدراسات الاسطيقية والنقدية ، جأروا بالدعوة الى تجديد الادب العربي في القوالب والموضوعات جميعاً . ولكنهم عندما ارادوا التطبيق ، وجدوا ان ثمة قيوداً تحول بينهم وبين ما يريدون .. فرأينا النزوع الى استحداث انواع جديدة لم يألفها الأدب الرسمي .. سمعنا عن وجوب ابتكار قوالب جديدة تُصب فيها القصيدة العربية ، وسمعنا عن الموسيقى الشعرية ودلالاتها الاصيلة في التعبير عن وجدان الشاعر ، وسمعنا عن التحرر من القافية وقرض الشعر المرسل ، وسمعنا عن تكثير القوافي في القصيدة الواحدة ، وسمعنا عن الملحمة العربية وعن الدرامة الشعرية العربية ، وسمعنا عن القصة المرسلة والدرامة النثرية الاجتماعية .. ثم نظرنا في صدى هذا الذي سمعناه ، فاذا القصيدة العربية على حالها ، وإذا بمحاولات الشعر المرسل تبوء بالفشل ، وإذا الموسيقى الشعرية كقوالب الآجر لا دلالة لها إلا التشكيل والصياغة ، وهي لا تتغير بتغير العواطف ، بل إنها تحتفظ بحالة واحدة في العمل الفني الذي يحكي عواطف مختلفة او معقدة . وإذا المسرحية الشعرية لا تزال مجموعة من القصائد الغنائية ، واذا الملحمة العربية ، في اللغة الرسمية لما تخلق بعد ، وإذا قصصنا ودراماتنا في النثر محدودة الخيال قليلة الفاعلية في المجتمع ؛ والجيد منها منقول أو مقتبس عن لغات اخرى وبيئات اخرى . وما يبدو منها اصيلاً ، او شبيهاً بالأصيل ، قليل جداً بالقياس إلى مجموع الانتاج في الأدب الرسمي ، وهو يشير إلى بوادر خطوة جديدة في التطور لما تكمل حركتها وتتضح معالمها .

اما النزعة الطبيعية وما تنطوي عليه من الضيق بالكلاسية ، والاحتفال بالصور والمشاهد خارج النفس ومحاولة استجلائها واستشفافها ، فهي ثورة على الكلاسية الجديدة ، مسايرة للرومانسية او متفرعة عنها . ولها في أدبنا العربي الحديث شواهد . ولكن المتأمل في هذه النزعة يرى انها وقفت عند

خطوتها الاولى من الالحاح عن الطبيعة ومجرد الرغبة في تصويرها وانها اتخذت الرمز غير الفني وسيلتها الى ذلك التصوير، فاختارت بعض الملامح البارزة للدلالة على هذه الطبيعة. واكتفت بحاملة الجرة والساقية والبهيمة وما اليها عند التحدث عن الريف. كما اكتفت بالرمال والكثبان والابل وامثالها في الاشارة الى البداوة الضاربة على حواف الأودية الخضراء؛ وكأنما خلت هذه وتلك من الحيوات النابضة الشاعرة. وإذا التفت اليها متفنن أو شاعر، فهو إنما يلتفت اليها كعنصر من العناصر التي تؤلف مهاد الصورة او خلفيتها، حتى ليخيل اليك ان المصور لا يعيش في الصورة بحيث يسبغ عليها وجدانه، بل ولا يعيش معها، حتى جاءت آثاره ادنى إلى الرموز الرياضية أو العلامات التجارية أو الرسوم التي يتبادلها الناس في مناسبات الاعياد. والدلالة الاجتماعية على فشل هذه الطبيعية هي بعينها الدلالة على قصور الحركة الرومانسية باكملها؛ وهي ان الوعي الديموقراطي كان في ناحية، ومنظمات التعليم ومؤهلات التفنن كانت في ناحية اخرى، لأن المجتمع لما يزل خاضعاً للحكومة المطلقة والطبقة الادارية المصطنعة. ومن ثم كان الاصرار على تغليب الادب الرسمي بتقاليده وقوالبه.

انقسم الادب الرسمي إذن إلى شعبتين: أولاهما واخطرهما الشعبة الكلاسية الجديدة، ولا تزال نامية مؤثرة فعالة. وثانيتهما الشعبة الرومانسية وما تبعها من الدعوة إلى الطبيعية، وهي التي تجاهد سلفية التراث، وتحاول أن تتحسس طريقها في تهيب بين المعلمين وفي جنبات المنظمات التعليمية. وكان منطق الحياة يقتضي أن يتم النصر للرومانسية وإن يتبع ذلك نصر آخر، بعقد اللواء للاجتماعية والواقعية.. فهل يا ترى فشلت الحياة؟.. نحن لا نريد أن نعصمها من الفشل، وهي دائمة التجربة... ولكن الذي نريد أن نقوله هو أن نعمل على بصر بالطريق الصحيح للتطور الادبي، وأن نعاونها على السير، وأن نقيل عثراتها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. وليس هذا بالامر العسير، فقد انتهى الزمن الذى كان التفنن الادبي فيه يعد إلهاماً فجائياً شاذاً ينزل على أفراد معينين، وأصبح عملاً نفسياً اجتماعياً يمكن تتبعه ورصده بل وتحويله أيضاً. والسبيل إلى ذلك لا تكون إلا بالتخفف من اسطورة العصر الذهبي وعدم الاقتصار على مأثور الادب الرسميُ ولقاح الادب الغربي.

وإذا كان الدارسون للتفنن والأسس التي يقوم عليها قد رغبوا عن علم النفس الفردي، وأصبحوا يقولون بقيام هذا التفنن على التكامل الاجتماعي، بعد أن صح عندهم ان الاطار هو الذي يشكل الأحاسيس والمدركات والتجاريب، بل ويكاد يحدد نوع النبوغ عند الفرد، فقد أصبح لزاماً علينا ألا نعوق نهضتنا الأدبية بهذا التشبث العنيد باطار الادب الرسمي؛ وألا نقتصر في تطويره على ما يأتينا من خارج ذواتنا وبيئاتنا عبر البحار؛ فان ذلك يحولنا الى ذوات أخرى تعيش في بيئات أخرى، كما حدث إبان النهضة بالفعل، من انقسام الادباء المجددين بالامس، المحافظين اليوم، الى سكسونيين ولاتينيين! يجب علينا ان نجعل الاطار متصلاً بالحياة متفاعلاً معها، فنعترف بتراث الادب الشعبي ونضعه في مكانه الصحيح من حياة الفرد والامة. ولسنا نقصد بذلك ان ننسخ به إطار الادب الرسمي وإطار الادب العربي، ولكن المعنى المراد ان يأخذ مكانه الطبيعي وسط هذين الاطارين.

الادب الشعبي الذي نقصده ليس أدباً جماعياً لا غير، ولكنه أدب فردي ايضاً. وقد أصبح الاطار المستمد منه اكثر فاعلية من إطار الادب الرسمي، بتعدد الوسائط التي تعمل على تسوية العقلية العامة والذوق العام، والتي تنزع الى الديموقراطية الادبية المنشودة في التعبير. ومن دلائل الخير ان الذكاء البشري استنبط وسائط أخرى تعتمد على الصورة المباشرة والكلمة الملفوظة — كما بينا في مقالنا السابق — التي لا يحتاج المفيد منها إلى تعلم الكتابة والقراءة، فأصبح المجتمع كله، أميين وغير أميين، يتذوق الفنون بعامة والفن القولي بخاصة، ويستمتع بالجمال المعبّر الذي كان في عرف الطبقات الرسمية الحاكمة، وقفاً على الكاتبين والقارئين فحسب.

إذا فعلنا هذا، وأغلب الظن ان الحياة سترغمنا على فعله، فلن يمضي طويل وقت بالقياس إلى عمر البشرية، حتى تزول الفوارق التي أقامها الوعي الطبقي وحتى يندمج الادبان: الرسمي والشعبي، وهو ما نتطلع اليه في تدعيم تطورنا الديموقراطي وتأصيله في النفوس، وبناء صرحه على أساس وجداني. وهكذا نجلو نظرنا الادبي ونوسع من مجاله بحيث يشمل الامة العربية كلها، ونصحح كثيراً من الاحكام الخاطئة التي راجت عنه في الشرق والغرب ونرد اليه اعتباره ونبرئه من أسطورة العصر الذهبي ونوقظه من خدر الاحلام وندفعه بفاعلية التفنن الى مكانه اللائق به في موكب الحياة الانسانية المتقدم أبداً إلى الامام

القاهرة — **عبد الحميد يونس**